المحاضرة الرابعة

كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي

مضمون الكتاب

يُعد كتاب طبقات الشعراء (أو طبقات فحول الشعراء كما رجّح المحقق محمود شاكر بناء على منهجه ومضمونه) للأديب الناقد النحوي محمد بن سلام الجمحي المولود بالبصرة عام 139 ه، في طليعة ما أُلِّف من كتب نقدية في مرحلة التدوين. وقد تميّز مؤلفه بهذا السبق وبأنه استطاع أن يجمع أشتات الأخبار والروايات والملاحظات والمعايير النقدية في عصره، وينظمها في إطار من البحث العلمي.

وقد تضمن الكتاب ثلاث قضايا نقدية ستكون مدار مدارسة مستفيضة في المؤلفات النقدية اللاحقة؛ وهي صناعة الشعر، وقضية النحل، والأسس الجمالية في نقد الشعر. أما القضية الجوهرية التي هي موضوع الكتاب وعنوانه، فهي قضية المفاضلة بين الشعراء وترتيبهم في طبقات؛ فقد اتجهت عناية المؤلف إلى إنضاج فكرة المفاضلة بين الشعراء التي كانت محل عناية من النقاد قبله، بإقامتها على أسس منهجية تستقي مادتها ومعاييرها من جملة ما انتثر إلى ذلك العهد، ويتولى ابن سلام تأليفها واستثمارها في ترتيب الشعراء في طبقات اعتمادا على علمه ونباهته وخبرته وذوقه.

أما صناعة الشعر فهي أولى القضايا التي عالجها ابن سلام في مقدمة كتابه. فقد كانت منطلقه للخوض في نقد الشعر بعدّه اختصاصا لا يصحّ أن يقربه إلا من يثقف صناعته ويلمّ بعلمه ويملك رصيدا من الخبرة فيه. والعلم بالشعر هو الذي يمكّن من معرفة صحيحه وموضوعه، ويؤهل للتمييز بين جيده ورديئه. وقد استدل ابن سلام برواية لها صلة عميقة بهذه المسألة، وهي قوله: "قال قائلٌ لخلف: إذا سمعتُ أنا بالشعر واستحسنتُه فما أبالي ما قلتَ فيه أنت وأصحابُه، فقال له: إذا أخذتَ أنت درهما فاستحسنتَه فقال لك الصراف إنه رديء، هل ينفعك استحسانُك له."

وأما قضية الانتحال، أو الوضع، فقد كان ابن سلام سباقا إلى معالجتها بمنهج علمي يمحّص الخبر والرواية اعتمادا على أدلة عقلية ونقلية. وفي هذا السياق جرى حديثه عن ضرورة امتلاك ثقافة كافية بصناعة الشعر؛ فبمثل هذه الثقافة يُقتدَرُ على التمييز بين شعر الشعراء الفحول والشعر المصنوع الموضوع المنحول الذي يصنعه الرواة غير النزيهين وينسبونه إلى شعراء قبائلهم للاستزادة من الأمجاد المزيفة، وفي هذا السياق يندرج قوله عن محمد بن إسحاق صاحب السيرة النبوية: "وكان ممن هجن الشعرَ وأفسده وحمل منه كل غثاء محمد بن إسحاق مولى آل مخرمة ابن المطلب بن عبد مناف، وكان من علماء الناس بالسير فقبل الناس عنه الأشعار، وكان يعتذر منها ويقول لا علم لي بالشعر إنما أوتى به فأحمله، ولم يكن ذلك له عذرا، فكتب في السير من أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط وأشعار النساء فضلا عن أشعار الرجال ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود، أفلا يرجع إلى نفسه فيقول من حمل هذا الشعر ومن أداه منذ ألوف السنين والله يقول (وأنه أهلك عادا الأولى وثمودا فما أبقى) وقال في عاد (فهل ترى لهم من باقية) وقال (وعادا وثمودا والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله)؟"

فهذا منهج ابن سلام في الاستدلال النقلي والعقلي على بطلان نسبة الشعر الموضوع إلى بعض الرجال والنساء والقبائل. أما جوهر كتابه فهو ترتيب شعراء الجاهلية والإسلام في طبقات: عشر طبقات لشعراء الجاهلية، وعشر لشعراء الإسلام، في كل طبقة أربعة شعراء. وطبقة لأصحاب المراثي، وطبقة لشعراء القرى العربية، وطبقة لشعراء اليهود. وواضح أنه لم يلتزم الترتيب الأساس الذي أقامه على معيار الجودة الفنية حين رتب بعض الطبقات على أساس الغرض أو البيئة أو الديانة؛ ولكن ذلك لم ينقص من فنية منهجه النقدي بقيامه على ترتيب الطبقات العشر في كل عصر على أساس من المعايير الجمالية.

الأسس الجمالية في تحديد الطبقة

يبدو لنا من خلال النظر في الحجج التي ساقها ابن سلام عند تقديمه كل شاعر أن أهم الأسس الجمالية التي جرى على أساسها الاختيار والتقسيم هي الآتية:

1.ابتكار موضوعات وأساليب جديدة: بمعنى أن يسبق الشاعر إلى معان وأفكار جديدة، وإلى طرائق في التعبير غير معهودة. وهذا هو الأساس الذي بني عليه تقديم امرئ القيس. قال ابن سلام: "فاحتج لامرئ القيس من يقدمه قال: ما قال ما لم يقولوا، ولكنه سبق العرب إلى أشياء ابتدعها، واستحسنتها العرب واتبعه فيها الشعراء: استيقاف صحبه، والتبكاء في الديار، ورقّة النسيب، وقرب المأخذ، وشبّه النساء بالظباء والبيض، وشبّه الخيل بالعقبان والعصي وقيد الأوابد، وأجاد في التشبيه، وفصل بين التشبيه وبين المعنى."

2. الإجادة في التشبيه والوصف: إن الإحسان في التشبيه والإصابة في الوصف أساس اعتمد عليه ابن سلام في عملية التفضيل؛ وهو المقياس الذي سيغدو أحد أركان عمود الشعر. فبوَحيٍ من هذا المقياس قُدِّم امرؤ القيس، إذ كان من مظاهر شاعريته جودة تشبيهاته. قال ابن سلام: "واستحسن الناس من تشبيه امرئ القيس:

كأن قلوب الطيرِ رطبا ويابسا لدى وكرها العُنّاب والحَشَفُ البالي

وقوله:

كأني بفتخاء الجناحين لَقْوةٌ دفوفٌ من العقبان طأطأتُ شملالُ

3.جودة الديباجة وكثرة الماء والرونق: كثيرا ما استعمل العرب كلمتي الديباج والرونق للتعبير عن عذوبة الشعر وطلاوته لفظا ومعنى، وارتياح النفس إليه واستئناسها به؛ فالديباج ثوب ناعم جيد من الحرير والإبريسم، ورونق الشيء ماؤه وحسنه وإشراقه. وعلى هذا فإن الشعر الذي يوصف بأنه كثير الماء والرونق، هو شعر "يبعث في النفس إحساسا يشبه إحساس من يبصر رونق السيف والضحى ونضارة الشباب وإشراقه". وهذا هو الأساس الذي بُني عليه تفضيل النابغة. قال ابن سلام: "وقال من احتج للنابغة: كان أحسنهم ديباجة شعر، وأكثرهم رونق كلام، وأجزلهم بيتا. كأن شعره كلام ليس فيه تكلف." وهو ما يدل على قوة الطبع والتمكن من أسباب الصنعة.

4.الحصافة: "تعني الحصافة جودة الرأي وإحكامه وسداده. وتعني في الشعر أن تكون معانيه حكيمة دالة". وقد رأى بعضهم شيئا من هذا في شعر زهير فانتصر له لهذا السبب. قال ابن سلام: "وقال أهل النظر: كان زهير أحصفهم شعرا، وأبعدهم من سخف."

5.النظم على الأبحر المختلفة: وهو معيار نوعي وكمي يحمَد للشاعر قدرته على النظم في الأغراض المختلفة؛ وهو ما يوفر لشعره ثراء موسيقيا وقدرة على معالجة أغراض كثيرة. وقد كان هذا أحد الأسس التي فُضِّل لأجلها الأعشى. فقد قال ابن سلام إن من قدّم الأعشى احتج له بأنه "أكثرهم عروضا، وأذهبهم في فنون الشعر، وأكثرهم طويلة جيدة، وأكثرهم مدحا وهجاء وفخرا ووصفا". وقد سماه معاوية بسبب هذه الموسيقية العالية "صنّاجة العرب".

6.النظم في الأغراض المختلفة: يوشك النقد العربي أن يُجمع على تفضيل الشاعر الذي ينظم في الأغراض المختلفة على شاعر الغرض الواحد أو الغرضين. وعلى هذا الأساس فُضِّل جرير. قال بشّار العقيلي: "كان جرير يحسن ضروبا من الشعر لا يحسنها الفرزدق." وعلى هذا الأساس كذلك جُعل كُثيِّر في الطيقة الثانية من الشعراء الإسلاميين، بينما أُخّر جميل إلى الطبقة السادسة مع أنه أقوة منه غزلا وأصدق صبابة. قال ابن سلام: "وكان لكثيّر في التشبيب نصيب وافر، وجميل مقدّم عليه في النسيب وله في فنون الشعر ما ليس لجميل، وكان جميل صادق الصبابة. وكان كثيّر يتقول ولم يكن عاشقا".

7.الإجادة في أغراض خاصة: في الشعر أغراض لها في اهتمام العرب مقام خاص؛ فهي لذلك أدلّ على الفحولة من غيرها. فالشاعر الذي يقول في تلك الأغراض ويجيد القول يحظى بمزيد تقدير، ويُقدّم على الشعراء الذين لا يجيدون في تلك الأغراض. قال ابن سلام: "وسألت الأسيدي عنهما (يعني جريرا والفرزدق) فقال: بيوت الشعر أربعة: فخر ومديح ونسيب وهجاء؛ وفي كلها غلب جرير." وقال: "قال أصحاب الأعشى: الأعشى هو أكثرهم عروضا، وأذهبهم في فنون الشعر، وأكثرهم مدحا وهجاء وفخرا ووصفا، كل ذلك عنده."

8.استقصاء المعنى وبلوغ الغرض: وهو الذهاب في المعنى الذي يأخذه الشاعر والغرض الذي يتناوله إلى حد من القوة والاستقصاء يؤدي إلى بلوغ الغرض من الإيجاع الشديد للمهجو في حال الهجاء، ومن إصابة الصورة الكاملة المُعجبة في حال المديح. يقول ابن سلام: "ولقد هجا الراعي فأوجع. قال لابن الرقاع العاملي:

لو كنتَ من أحدٍ يُهجى هجوتُكُمُ يا ابن الرقاع، ولكن لستَ من أحدِ

تأبى قضاعةُ أن تعرف لكم نسَبا وابنا نزارٍ، فأنتم بيضة البلدِ

ويقول عن كُثيّر: "ورأيتُ ابن أبي حفصة يعجبه مذهبه في المديح جدا. يقول: كان يستقصي المديح."

9.كثرة الجياد الطِّوال: وهو مقياس معتبر في النقد العربي، يدل عليه قول ابن سلام عمن انتصر للأعشى: "وأكثرهم طويلةً جيدة". ويتجلى أكثر في قوله عن الأسود بن يعفر النهشلي: "وكان الأسود شاعرا فحلا. وكان يكثر التنقل في العرب يحاورهم، فيذم ويمدح، وله في ذلك أشعار. وله واحدة رائعة طويلة لاحقة بأجود الشعر، لو كان شفعها بمثلها قدمناه على مرتبته، وهي:

نامَ الخليُّ وما أُحسُّ رُقادي والهمُّ محتضر لديَّ وسادي

10.القصيدة الواحدة المتفوقة: جعل ابن سلام الواحدة المتميزة في الطبقة السادسة من طبقات الجاهليين. يقول: "أربعة رهط، لكل واحد منهم واحدة. وهؤلاء الأربعة هم: عمرو بن كلثوم، وله قصيدته التي أولها:

ألا هبّي بصحنك فاصبحينا

والحارث بن حلزّة اليشكري، وله قصيدته التي يقول فيها: آذنتنا ببينها أسماءُ

وعنترة بن شدّاد العبسي، وله قصيدته التي يقول فيها:

يا دار عبلة بالجواء تكلمي وعمي صباحا دار عبلة واسلمي

وسويد بن كاهل اليشكري، وله قصيدته التي أولها:

بسَطَتْ رابِعةُ الحبلَ لنا فبَسَطنا الحبلَ منها فانقطعْ

وقبل هذا قيل عن طرفة: "فأما طرفة فأشعر الناس واحدةً، وهي قوله:

لخولةَ أطلالٌ ببرقةِ ثهمدِ وقفتُ بها أبكي وأبكي إلى الغدِ

وتليها أخرى مثلُها وهي: أصحوتَ اليومَ أم شاقَكَ هِرُّ ومن الحبِّ جنونٌ مستعِرْ"

وقد جعله ابن سلام في الطبقة الرابعة.

فهذه أهم المقاييس التي اعتمدها ابن سلام في ترتيب الشعراء الجاهليين والإسلاميين في طبقات الفحول من الشعراء. وقد ظلت رصيدا نقديا يستقي منه النقاد اللاحقون بعض مادتهم النقدية وبعض معاييرهم في نقد الشعر؛ فكان لابن سلام في ذلك فضل السبق والتأسيس والتأليف المنهجي لما تفرق من ملاحظات النقاد في عصره.